الشرق والغرب والتواصل بينهما
حافظ الشيرازي و«يوهان فون غوتي»
مثال هذا التواصل

د. عبد الكريم اليافي

الشرق بلاد النور والسموّ والحب والانفتاح والتفاؤل والتواصل. يصل النور إلى بلاد الشرق أول ما يصل إلى الأرض ثم ينتقل منها إلى الغرب وبقية أنحاء العالم.

في بلاد الشرق نشأت الديانات السماوية الساميَة وسَعَت إلى أن تحدّ من غطرسة الإنسان وطغيانه.

فيها نشأت أوّل أبجدية في تاريخ العالم فكانت أهمّ مرحلة في الحضارة الإنسانية حين يسّرت الكتابة وتسجيل المعارف وخزنها، كما سهّلت بذلك التواصل والتعارف وتبادل المعرفة بين الشعوب. لقد نهض البطل السوري قدموس كما يدعوه اليونان وحمل تلك الأبجدية إلى بلاد اليونان، ومنها انتشرت إلى بلاد العالم.

ودليل أصلها السوري الفينيقي العربي أن «كلمن» وهو رئيس الأبجدية يوجد في سائر الأبجديات محافظًا على ترتيب حروف اسمه «ك ل م ن» «KLMN».

لقد أشاد اليونان القدماء ولا سيما أرسطوطاليس بعبقرية أبناء الشرق وذكائهم ومهاراتهم. كان ذكاء الفينيقيين وعبقرياتُهم وتجاراتُهم سلامًا وتضامنًا وتعارفًا في تاريخ العالم. لقد أنشؤوا فيما أنشؤوا مركزًا لهم في جزيرة كوثير

اليونانية، كما أنشؤوا قرطاجنّة في شماليّ تونِس للتجارة والحضارة. وكلمة كوثير تذكِّرنا بالجذر العربي وهو الكثرة وكانت مشهورة بالجمال والتحضّر والرفاهية وكثرة المتاع. وقد ترجمناها بالكوثرة حين تكلَّمنا عليها عرضًا في بحوثنا في علم الجمال.

كلمة Orientation في اللغات الأجنبية معناها الاتجاه أو التوجيه نحو الشرق ومعناها أيضًا التوجيه الرشيد السديد.

ليس هنا مجال للإفاضة في المآثر الإنسانية النورانية الشرقية. ولكني أقتصر على مثال حديث رائع يرد محًا في تاريخ الأدب المقارن يدلّ على التواصل العميق والمحبّة والتفاؤل والانفتاح بين الشرق والغرب يجب أن نؤكِّده وأمثاله حتى نتعرف الأخوّة الإنسانية وتقدير الأدباء والمفكرين الكبار بعضِهم لبعض في أي مكان وهو قصة الشاعر والكاتب الكبير الألماني الحديث «يوهان غوتي» (١٧٤٩– ١٨٣٢) وحافظ الشيرازي الإيراني (١٣٢٥– ١٣٨٩). بينهما أكثر من أربعة قرون. وهذا دليل على أن الإبداع والمعرفة والاقتباس نسب خالد على مدى الأيام والأعوام.

لقد اهتم «غوتي» في صباه بالآداب الشرقية عربية وهندية وفارسية، مستجيبًا للنزعة الرومنسية التي غدت تستفيض في فنون أوربّة. اطّلع على ترجمة للقرآن الكريم وأُعجب به. فازدادت عنايته بالأدب العربي. قرأ المعلَّقات في ترجمة «جونز» اللاتينية وترجم هو قطعة من معلقة امرئ القيس. ثم حاول أن يتعلم اللغة العربية. ولكن لم يصل في تعلّمها إلاّ إلى الإلمام ببعض ألفاظها وقواعدها وبكتابة حروفها.

كذلك أُعجب كلّ الإعجاب بالأدب الفارسي. فقرأ قصة «ليلى

ومجنون» التي نظمها الشاعر الفارسي نظامي كنجوي في ترجمتها اللاتينية، وبقي اهتمامه بكنوز الشرق اهتمام الطُّلَعة البحاثة عن الغذاء الروحي أيّان وجده حتى ٧ حزيران عام ١٨١٤.

أما في هذا التاريخ فنجد دفتر يومياته يحمل على إحدى صفحاته هذين اللفظين: «ديوان حافظ». وكان المستشرق الدبلوماسي يوسف همّر قبل حينٍ نشر ترجمة ألمانية له. ولم يكد يطّلع «غوتي» على هذا الديوان حتى فجّر هذا الاطلاع مكامن جديدة للإبداع في شاعريته. وانتهى هذا الإعجاب إلى امتزاج روحيّ قويّ يستلهم الشاعر الألماني الكبير منه أنوار عبقرية حافظ، وغدا ينظم القصائد اللطيفة البديعة التي ضمّنها ديوانًا كتب هو نفسه عنوانه باللغة العربية: «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» وأصبح الشعر ينبعث من فيه كما يندفع الصداح الساحر من حنجرة عندليب.

إن هذا التحوّل لم يقتصر على الاستلهام واقتفاء الأثر والائتمام بالهَدْيِ والطريقة، بل كأن ديوان حافظ بما فيه من شاعرية أصيلة وإبداع مبتكر قد نفح «يوهان» بحيويّة جديدة ورَدَّه إلى شَرْخٍ من الشباب وإلى نضارة من التفاؤل والحبّ، فغدا يشارك حافظًا في مشاعره ومواجيده وإبداعه.

نجد «غوتي» في ربيع سنة ١٨١٥ وهو في سن الخامسة والستين يشكو من مرض «النقرس». فهو يركب عربته ويقصد إلى مدينة «فسبادن» ذات المياه المعدنية. وهو يشعر أن نفسه قد امتلأت بألحان الشعر العذبة. وكأنه يخاطب ذاته قائلاً: «لقد اشتعل رأسك بالشيب. ومع ذلك أمامك أن تحبّ». وحقًا نزلَ ضيفًا على أسرة من أصدقائه فأحب بينهم الحسناء «ماريان ڤِلِّمِر» وبادلته حبًّا بحبّ.

«الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» قسمان: شعر ونثر. أما النثر فهو تعليقات وضعها الشاعر نفسه إيضاحًا لمقاصد الديوان، وهي خاصة بتاريخ الآداب العربية والفارسية وغيرها من الآداب الشرقية. وأما الشعر فبناهُ الشاعر على اثني عشر كتابًا أو كُتَيِّبًا. وهي كتاب المغنّي وكتاب حافظ وكتاب العشق وكتاب التفكير وكتاب الغضب وكتاب الحكمة وكتاب تيمور وكتاب زليخا وكتاب الساقي وكتاب الأمثال وكتاب البارسي (أي الفارسي) وكتاب الخلد. وقد وضع الشاعر عنوانات هذه الكتب باللغة الفارسية وتحتها ترجمتها بالألمانية.

قصائد هذا الديوان فيض من الإلهام ولون من ألوان الانسجام والحبّ والحنان وبوحٌ بمشاعر المؤلف الكامنة. وقد أخذت «ماريان» فيه لقب «زليخا» عاشقة النبيّ يوسف التي تغنّى بها حافظ.

أما غوتي فيسمّي نفسه في الديوان باسم حاتم إشارة إلى حاتم الطائي العربي المشهور بالسخاء العظيم. إنه لم يختر لنفسه اسم واحد من العشاق المشهورين كقيس بن الملوّح مجنون ليلى وقيس بن ذريح عشيق لبنى وغيرهما. ولكنه اختار حاتمًا ذلك أن الحب العميق يبذل المحب فيه نفسه للمحبوب. والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

ولم يقصّر «غوتي» في تمجيد أستاذه حافظ وبيان تأثيره فيه. فقد وسم أحد كتب الديوان باسمه وهو «حافظ نامه» (أي كتاب حافظ).

القصيدة الأولى فيه بعنوان «لقب» وهي نوع بارع من الحوار بين الشاعرين: يسأل الشاعر الألماني حافظًا عن سبب تلقيبه بحافظ. ويجيبه بأنه يحفظ في ذاكرته القوية المحظوظة التراث المقدَّس وهو القرآن الكريم صحيحًا غير محرّف.

ويخاطبه «غوتي» بأنه يسير على خطاه وينهج نهجه فهو قد تمثَّل أيضًا الكتاب المقدَّس المسيحي وانطبع في قلبه انطباع صورة السيّد المسيح على المنديل المبارك. فهما في هاتين المأثرتين متشابهان كل الشبه. إنهما توأمان:

حافظ الأسبق و«غوتي» الأحدث.

وفي كلام «غوتي» ذِكْرُهُ للمنديل المبارك إشارةٌ إلى انطباع وجه السيّد المسيح على ثوب «فيرونيكا» الأبيض، وهي التي مسحت وجه المسيح وهو يصعد الجبل بقماش أبيض فانطبعت عليه صورة وجه السيّد المبارك.

وتوكيدًا لفضل حافظ يقول «غوتي» في القطعة الشعرية بعنوان «محاكاة» رقم ٧ من كتاب «حافظ نامه» نفسه:

«وكما أن الشرارة قادرة على أن تحرق مدينة السلطان
إذا سار اللهب وأنتج بنفسه الريح
فاشتعل من ريح نفسه، حتى إذا ما انطفأ
اختفى في أعلى السماء
كذلك احترق بلهيبك الخالد
قلبٌ ألمانيٌ قد أشعت فيه القوة من جديد».

كان «غوتي» قد أعلن عن كتاب «حافظ نامه» في (المجلة الشرقية) سنة ١٨١٦ برقم ٤٨ ص (١٨٩) كما يلي:

«هاهو ذا حافظ نامه أو كتاب حافظ. وقد كُرِّس لوصف هذا الرجل العظيم وتقديره وتمجيده. كما أن به تعبيرًا عن الصلة التي تربط بين الشاعر الفارسي والشاعر الألماني الذي تحمّس له وتعلّق به إلى درجة من الوجد هائلة، ونعته بأنه لا يستطيع أن يبلغ شأوه ولا أن يلحق به».

على أن السمة الغالبة في «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» هي الرغبة في التحرّر والتحوّل أو الهجرة التي تتضمن التغيير من حالٍ إلى حالٍ أفضل وأسمى. «لغوتي» قطعة من أجمل الشعر الألماني بعنوان «الحنين السعيد» رقم ١٧ في الكتيّب الأول، كتاب «المغنّي» يضرب الشاعر فيها مثلاً، كثيرًا ما استعمله الشعراء الفرس على هذا التحوّل، وهو احتراق الفراشة (أي النفس الإنسانية) عاشقة النور بالنور نفسه لتصبح هي نفسها نورًا. (وقد نقلنا القطعة إلى العربية وأثبتناها في ديواننا «حصاد الظلال» بين الأشعار المترجمة).

في كتاب «المغنّي» أيضًا قبل هذه القطعة قطعة أخرى بارعة ومؤثِّرة بعنوان «الخاطر الحر» رقم٣ يصوِّر الشاعر نفسه بصورة رحّالة يريد أن يجوب الشرق ومختلف الآفاق يستهلها بقوله:

«دعوني وحيدًا أقيم على سرج جوادي
وأقيموا أنتم ما شئتم في دياركم ومضارب خيمكم
أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصيها على صهوة فرسي
فَرِحًا مسرورًا لا يعلو على قلنسوتي غير نجوم السماء..».

نظن، كما هي طبيعة الشعر البليغ، أن الشاعر يرمز هنا بنجوم السماء إلى ملوك الشعر الفارسي أمثال «نظامي كنجوي» و«فريد الدين العطار» و«جلال الدين الرومي» و«عبد الرحمن جامي» و«حافظ الشيرازي» وأمثالهم. وليس فوق قلنسوته سوى أولئك النجوم.

عاش حافظ في عصر مضطرب، عصر «تيمور».

وعاش «غوتي» مثله في عصر مضطرب، عصر «نابليون بونابرت».

ولم يَخْلُ اضطرابُ عصريهما دون إيراق موهبة كليهما أجمل إيراق،

واكتمال شاعريّتهما أروع اكتمال لتتفتّحا بأبهى الورود والأزاهير، وتنفحا بأزكى الشذا وأرقّ العبير. هذا العبير وذاك الشذا أغاريد حبٍّ وتفاؤل، ورسائل سلام وتواصل، تصدر هي وأمثالها عن قيثارة الإنسان الراقي الفاضل المحب للإنسان، والعريق في الحضارة وحلو البيان. إنها خالدة على مدى الزمان، وتعاقب الأجيال والحدثان.

ها نحن أولاء في أوائل القرن الحادي والعشرين نعيش في عصر مضطرب كما عاش «غوتي» وحافظ. بل نعيش في عصر أمرَّ وأدهى من عصريهما. أوليس لنا مع ذلك أن نقلدهما وغيرهما من البلغاء والأحرار ونتغنّى بالمحبة والتواصل والازدهار، وننشد ما طاب لنا في الخاتمة من الأشعار مستلهمين شاعرية حافظ المبدعة وما لديها من الأسرار:

ألا أيها الساقي أدر كأسًا وناولها
وأغرق مشكلات العيـ ـش في الصهبا وأبطلها
إذا ضاقت بك الدنيا بورد الكأس جمِّلها
ودعني أنا والحسنا مع الصهبا أغازلها
وإن ناءت بك الأوزا ر للرحمـن أوكلها
فيا ربّي على الفقرا ء سُحْبَ العفو أسبلها
ملأت قلوبهم عشقًا حيارى في الهوى بُلْها

* * *

دجا الدهر وما زلنا على فُلْك الهوى نسري
ونحمل راية العشا ق من عصر إلى عصر

ومن قطب إلى قطب ومن قطر إلى قطر
دعاة الحب في الدنيا وفي الأخرى وفي الحشر
سكارى منذ أن كنا بلا كأس ولا خمر
أتتنا نشوة الصهبا ء قبل القطف والعصر
سرى تأثيرها في الرو ح مثل النور في الفجر
فجدِّد نشوة سلفت ونفسك لا تحمِّلها

* * *

ألا يا أيها الدرويش حسـ ـبك كوبك الملآن
وزهدك في حطام العيـ ـش والرحمةُ والرضوان
فلا تحفل بما قالوا ومَا يجري ولا ما كان
فكم حلّ على شيرا ز من بغيٍ ومن طغيان
وزال البغي والباغي وغاب الملك والسلطان
ولكن بقي النِّسريـ ـن والنرجس والريحان
أليست هذه دار ك برج العلم والعرفان
صلاتَك حينما ليلى تجيء إليك أجِّلها

* * *

تؤاخذني على عاري ومجدي هو في عاري
وما عاري سوى حبي وصهبائي وقيثاري
وتهيامي بذات الشـ ـفة الحمراء كالنار
وما داري زوايا النسـ ـك بل حانة خمار

أنا السكران لكني أُرجِّي رحمة الباري
يدارون الملوك وأنـ ـتَ ربّاتِ البها داري
لباسهم الرياء وأنـ ـت من ثوب الريا عاري
ذنوبَك أيها العاصي بماء التوبة اغسلها

* * *

عجيب أمر هذا الشعـ ـر طفل عمره ليله
يطوف العالم المعمور يقطع وعره سهله
ويمضي خالدًا في كـ ـل قلب ملهبًا شعله
وكم من علة يأسو وكم ينقع من غله
كأن الله قد ألقى على تكوينه ظله
فيا وجدي إلى ثغر الـ ـحبيب كأنه فله
ويا ظمئِي إلى الصهبا ء تمسح لاعجي كله
فهيا يا شقيق الرو ح نحو الحان ندخلها

* * *

خلاف الأهل أضناني وإبليس هو الجاني
وما شان بهاء العيـ ـش إلا الحاسد الشاني
وما أحلى تلاقي الأهـ ـل في حب وإحسان
فيا لَلشمل ضُمُّوهُ لِيدفعَ كل عدوان
أليس المسجد الأقصى أسير قطيع ذؤبان
ألا إن سلام الأر ض نيروزي وبستاني

فيا رحمان كن معنا وبارك صلح إخواني
ويا ربّاه رحماك عقود الصلح أكملها

* * *

أدر كأسًا وناولها ألا يا أيّها الساقي
حميّا الكأس والمحبو ب زادا نار أشواقي
رعاكِ الله ياشير ز أنتِ ضياء آماقي
زكوتِ ربيعَ آفاق وفُزْتِ نعيم عشَّاق
أنا المجنون يا ليلى أنا المسقيّ والساقي
أنا كأسي وصهبائي أنا سمّي وترياقي
شرابي ما به صحو جنوني ما له راقي
جذوري في الثرى تمضي وجذعي سامق راقي
وتلك الشمس ميقاتي وهذي الأرض أوراقي
وأكتب بالشعاع الحلـ ـو ألحاني وأذواقي
إذا أفنتني الأيا م شعري خالد باقي
تحياتِكَ يا «يافي» إلى شيراز أرسلها
هنالك بيت أسرا رك للعشاق فصّلها
مزاياك التي في القلب ويحك لا تبدّلها
«متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها»